

مفهوم الصورة

في
الشعر

مصطلح الصورة من المصطلحات الحديثة التي تداولها النقاد والدارسون ، حيث كان هذا المصطلح يندرج تحت مسمى آخر ، فسامها الجرجاني الاستعارة أو التشبيه ، كما سماها غيره ، من علماء البلاغة : الجاحظ ، وابن المعتز وابن طباطبا وغيره .

والصورة بمفهومها القديم ، وما درج العرف عليه وليدة الخيال ، وهي نقل واستدعاء من عالم الخيال لتوليد ما مر بالإنسان من مرئيات سابقة ، أو توليد صور مستمدة من ابتكار الشاعر .

ولأن الكلاسيكيين يؤمنون بأن العقل هو عالم الحقائق الواضحة فهم يقتصدون في الصور ويكتفون بما يمثل الواقع ويؤدي إلى الفكرة .

على حين اهتم الرومانيتيون بالخيال ، وجعلوا الصور والتخييل في منزلة أعلى من لغة العقل لإيمانهم الوثيق بدور الصورة في الكشف عن خفايا النفس ومشاعر الإنسان ، وما يدور في داخله ، وهذا يدفعنا للقول بأن مفهوم الصورة يختلف هنا – عند الرومانيتيين – فهي تقوم بدور الكشف عن العالم الداخلي للشاعر ، بينما عند الكلاسيكيين تقوم

بتصوير الواقع ، في حين نجد المذهب الرمزي ينادى بترسل الحواس ، فالصوت له لون ، واللون مضموم وهكذا الانفعالات التي تعكسها الحواس قد تتشابه من حيث وقعها النفسي .

فقد يترك الصوت أثرًا شبيهًا بذلك الذي تركه اللون ، أو تخلفه الرائحة . ومن ثم يصبح طبيعيًا أن تتبادل المحسوسات ، فتوصف معطيات حاسة بأوصاف

حاسة أخرى . بل قد يضيف الشاعر خصائص الماديات على المعنويات . أو يخلع سمات المعنويات على الماديات .^(١)

من هنا حدث الاختلاف حول مفهوم الصورة : الصورة التي تمثل الواقع وتتسم بالعقلانية عند الكلاسيكيين ، و الصورة التي تبرز الجانب الداخلي للشاعر وتجلى مشاعره ودخائل نفسه أو ما نسميه الذاتية عند الرومانتيكيين ، وصولاً إلى الرمزية التي تعنى بالصورة التجريدية التشخيصية القائمة على تراسل الحواس . وفي بحث طيب عن الصورة الفنية للدكتور / عبد الفتاح عثمان بين فيه أنواع الصورة الفنية متخذاً شعر شوقي نموذجاً توصل من خلاله إلى أنواع الصور وجعل منها :

١- الصورة التشخيصية :

وهي التي يستخدمها الشعراء في تشخيص مظاهر الطبيعة الصامتة، والمتحركة بحيث تضحى الطبيعة شخوصاً عاقلة تتفاعل وتتجاوب وتستشعر وجود الإنسان ، وتسمع نبض عواطفه ويمثل الدكتور عثمان لذلك بقول شوقي :

ولقد تمر على الغدير تخاله والذبت مرآة زهت بإطار
حلو التسلسل موجه وخيره كأنامل مرت على أوتار

٢- الصورة التجريدية :

ويعرفها الدكتور بأنها الصورة التي يستخدمها الشاعر حين يريد تشبيه المحسوس بالمعقول ، أو المقول بالمعقول ، فالشيء المادي المحسوس قد يقارن بفكرة ذهنية مجردة كما أن الفكرة الذهنية المجردة قد تقارن بفكرة أخرى أكثر منها وضوحاً ويمثل لذلك بقول الشاعر شوقي في مسرحية " مصرع كليوباترا " :-

يا موت مل بالشرع وأجمل جريح الحياة

١- دراسات ونماذج في مذاهب الشعر ونقده ، غنيمي هلال ص ٦٥ دار نهضة مصر .

سر بالقلوع السراع إلى شطوط النجاة
شرايك الفضى في لجه التبيري
كالحم في الغمض يجري ولا يجري
٢- الصورة الوصفية التي أسماها (البلاستيكية)

ويعرفها بأنها الصورة المراد بها مطلق التجسيم والتكبير بصرف النظر عن ارتباطها بالوجدان ، أو رمزها لحالات نفسية خاصة ، ومجال عمل هذه الصورة في المحسوسات حين يلحق الأقل بالأكثر والأخفى بالأظهر ويمثل لذلك بقول شوقي يصف سفينة في عرض البحر :

وجبالاً موائجاً في جبال تتدجى كأنها الظلماء
ودويا كما تأهبت الخيل ل وهاجت حماتها الهيجاء
لجة عند لجة أخرى كهضاب ماجت بها البيداء
٤- الصورة الدرامية :

وهي الصورة التي تحفل بالحركة والتوتر والنمو فتتدافع الأحداث ، وتنمو المواقف وتتابع المشاهد في وحدة نامية متآزرة ويمثل ذلك بقول شوقي يصف مهرجان النيل والاحتفال بإلقاء فتاة جميلة في خضمه ، وهي التي يطلق عليها عروس النيل وسط مظاهر الحفاوة والتكريم يقول :

في كل عام درة تلقى بلا ثمن إليك وحررة لا تصدق
زفت إلى ملك الملوك يحثها دين ويدفعها هوى وتشوق
في مهرجان هزت الدنيا به أعطافها واختال فيه المشرق
ألقت إليك بنفسها ونفيسها وأنتك شقيقة حواها شقيق
خلعت عليك حياءها وحياتها أ عز من هذين شيء ينفق ؟

هذا التصنيف فضلاً عما فيه من دقة يبرز خصوصية شوقي وشاعريته الدفاقة^(١) ، ويبقى في مبحث الصورة متسع للتصنيف بوجه عام ، والواضح أن الصورة تنحصر في نوعين :

أ- الصورة الجزئية .
ب- الصورة الكلية .

ويندرج تحت الصورة الجزئية أنواع منها :

١- الصورة الممتدة :

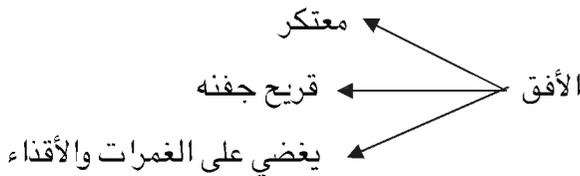
وهي أن يقصد الشاعر إلى امتداد الصورة ، فيجعل للمشبه الواحدة أكثر من مشبه به بقصد تجليه المشبه وإبرازه؛ ففي قول الشاعر^(٢) :

والأفق معتكر قريح جفنه يغضي على الغمرات و الأقداء

نجد أن الأفق مشبه فلم يكتف الشاعر بجعله معتكراً بل مد الصورة فقال :

والأفق قريح جفنه ، ومد الصورة أكثر فقال والأفق يغضي على الغمرات

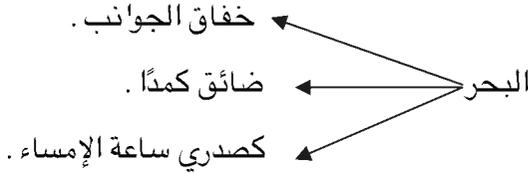
والأقداء ولنا أن نتبين هذه الصورة من خلال الشكل التالي :



١- راجع مجلة فصول ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، الصورة الفنية في شعر شوقي الغنائي ، د . عبد الفتاح عثمان ص ١٤٤ وما بعدها .

٢- ديوان خليل مطران ، قصيدة " المساء " .

يوضح ذلك الشكل التالي :



والذي لاشك فيه أن امتداد الصورة يكشف عن براعة الشاعر ومقدرته ، كما يبرز المشبه من خلال التشكيل وتنوع الصورة بما يحمله التشبيه من إيضاح للمشبه وبما تحمله الاستعارة من تجسيم وتشخيص للشيء المعنوي في صورة شيء ملموس .

٢- الصورة المتداخلة أو المركبة :

وهي التي يتداخل أجزؤها فتكون الكلمة مشبهابه وفي الوقت نفسه مشبهها مثل قول الشاعر بدر شاكر السياب^(١) :

والنور تعصره المصابيح الحزاني في شحوب

مثل الضباب على الطريق

من كل حانوت عتيق

كأنه نغم يذوب

في ذلك السوق القديم

تأمل الصورة في قوله : النور تعصره المصابيح الحزاني ، تجد أن :

النور مشبه والمشبه به محذوف وبقية لازمة من لوازمه تعصره المصابيح فالمصابيح مقام المشبه به ، والمصابيح نفسها مشبه والمشبه به محذوف دل عليه قول الشاعر الحزاني ، فالمصابيح كالإنسان .

١- ديوان السياب ج ١ قصيدة (السوق القديم) .

وقول الشاعر : حانوت عتيق كأنه نغم يذوب . الحانوت مشبه ، نغم مشبه به ونغم نفسها مشبه والمشبه به محذوف دل عليه قوله يذوب ، وكأنه يريد أن يقول (النغم كالمسائل) .

فالصورة هنا متداخلة ويتضح ذلك من خلال الشكل التالي :

= (النور) مشبه ← (تعصره المصابيح) مشبه به



مشبه (والحزنى) مشبه به .

= (حانوت عتيق) مشبه ← كأنه (نغم) مشبه به .

↓
مشبه (يذوب) مشبه به .

تداخلت الصورة وربكت فصارت (تعصره المصابيح) مشبهها به ومشبهها لما بعدها في الوقت نفسه .

وتداخلت الصورة حتى صارت كلمة (نغم) مشبهها به ومشبهها لما بعدها في الوقت نفسه .

وهذا التداخل من شأنه أن يعمق الصورة ويعطيها ثراء وجاذبية تدعو إلى التأمل والتفكير للوصول إلى المحتوى وتوضيح ما فيه من جوانب جمالية ودلالات والشاعر حين يحرص على تركيب الصورة وتداخلها بهذا الشكل يعطيها طرافة وحيوية ، ويدل على مقدرته الشعرية وتمكنه .

ولا شك أن للخيال دوره وللصورة أثرها في تشكيل القصيدة " وقد دلت التجارب على أن المناظر إذا عرضت على عين الخيال أو العقل كانت أجمل مما إذا

عرضت على العين الحسية ، وكلما قوي خيالنا قويت لذاتنا ، وقوة الخيال تصحب
النواظر دائماً وتكون عاملاً مهماً في تفهيم الشيء وإيضاحه^(١) .

٢- الصورة الكلية :

وهي التي تنتزع من عدة أبيات أو أسطر ، وتضم عناصر اللون والصوت والرائحة
والحركة مثل قول الشاعر نزار قباني بعنوان " وشاية "^(٢) :

أنا عنك ما أخبرتهم . . لكنهم

لمحوك تغتسلين في أحداقي

أنا عنك ما كلمتهم . . لكنهم

قرأوك في حبرى وفي أوراقى

للحب رائحة . . وليس بوسعها

أن لا تفوح . . مزارع الدراق

هذه الأبيات تمثل صورة كلية تضم عناصر يمكن أن نتبينها في :

اللون : في قوله : أحداق - مزارع - الدراق - حبر - أوراق .

الصوت : في قوله : أخبرتهم - قرأوك - كلمتهم .

الحركة : في قوله : لمحوك - تغتسلين .

الرائحة : في قوله : رائحة - تفوح - مزارع الدراق .

ويقول الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي في قصيدة " الرحلة إلى الريف "^(٣):

محطة في أسفل المدينة

مسقوفة ، تضاء في نصف النهار

١- النقد الأدبي ، أحمد أمين ، ص ٥٩ .

٢- الأعمال الكاملة ، نزار ، نزار قباني .

٣- الأعمال الكاملة ، أحمد عبد المعطي حجازي .

مواكب المسافرين ضجة حزينة
وساعة تحصي عذاب الانتظار
وصفر القطار
إثا قلت أقدامه وسار ، ثم سار
لافتة تراجع
صبية لم تستطع به اللحاق
شيعته في انكسار
وغادر المدينة
ترنج الضجيج في المدى
ثم ارتمى سكينه .

تتضح عناصر الصورة الكلية في :

اللون : في قول الشاعر : النهار - تضاء - لافتة .

الصوت : في قول الشاعر : ضجة - صفّر - الضجيج .

الحركة : في قول الشاعر : تحصى - إثا قلت - سار - تراجع - شيعته

- غادر - ترنج - ارتمى .

والجدير بالملاحظة أن الشعر الحر قد أفسح المجال أمام الشعراء والمبدعين لابتكار الصورة وإثرائها بمزيد من الإيحاءات والدلالات ، حتى صار التصوير يحتل مساحة كبيرة في بنية القصيدة " لأن الصورة الفنية تركيبية وجدانية تنتمي في جوهرها إلى عالم الوجدان أكثر من انتمائها إلى عالم الواقع ومن ثم يبدو لنا في كثير من الأحيان أن الشاعر أو الفنان يعبث في صورته بالطبيعة وبالأشياء الواقعة ، وقد نطلق على هذا العبث لفظة (التشويه) فإذا الحقيقة الواقعة تبدو ناقصة أمامنا ،

وقد تبدو مزيفة ، غير أن الحقيقة أنه لا تشويه هناك ولا تزييف ، لأنه ليس من الضروري أن يكون عالم الوجدان مطابقاً لعالم الواقع ، أو أن يكون الذاتي تكراراً للموضوعي بل الغالب أن يكون للذاتي واقعيته الخاصة ، وعندئذ حينما يحاول الفنان أن يصنع من الذاتي واقعياً من خلال الصورة المحسوسة ، يبدو هذا الواقع الجديد مغايراً للواقع القبلي المرصود " (١)

١- الشعر العربي المعاصر ، د. عز الدين اسماعيل ، ص ١٢٧ ، دار الفكر العربي ، القاهرة .